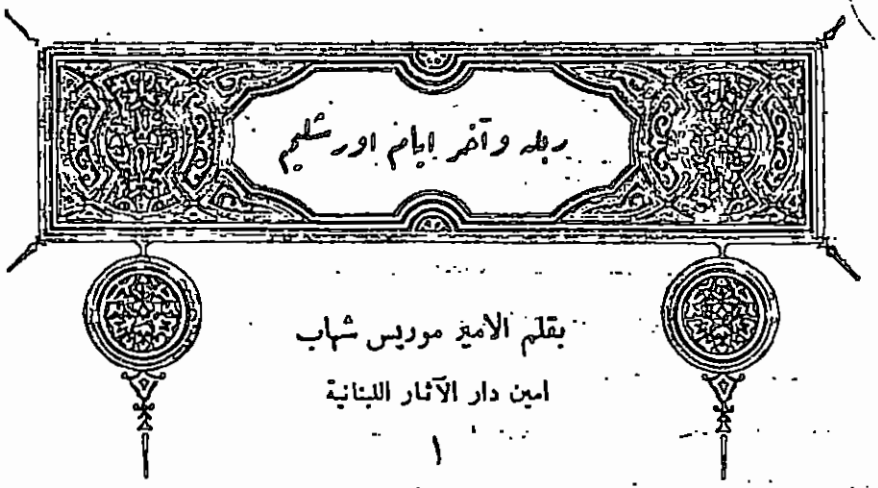

بقلم الأمير موريس شهاب
امين دار الآثار اللبنانية

١

لي ونشرت شيئاً على صفحات المشرق عن قادش ، ذلك الحصن المنيع ، الذي طالما وقف في وجه الجيوش المصرية من منتصف الالف الثاني حتى القرن الثالث عشر قبل المسيح . اما اليوم فسانتقل بالذكر الى بضعة كيلومترات جنوبي قادش ، حيث مثلت مدينة ربلة دوراً هاماً في أواسط الالف الاول قبل المسيح .

اقتراض دولة الاشوريين

بلغت مملكة الاشوريين في القرن السادس ذروة المجد ، اذ انتشرت سطوة ملوكهم على القسم الاكبر من الشرق الادنى . فامتدت اراضيهم من جبال ايران حتى شلالات النيل وشواطئ البحر الاسود . وقد دانت لهم الممالك ، ومشت في ركابهم ، واصبحت نينوى محجّ الشعوب يؤمونها تحت عبء الاحمال الثقيلة تتبعهم قوافل لا اول لها ولا آخر مثقلة بالهدايا النفيسة للملك اشور الاعظم . وكان هذا الملك يفتخر بانه دوّخ الارض وغيّر شكلها ، فنقل الكلدان الى السامرة ، واهل السامرة الى ضفاف الخابور والى بلاد الايرانيين ، واشبع القربان من لحوم الاعداء ، بعد ان سلخ جلودهم ونشرها على اسوار مدنهم . ولم يكن لملك أشور من لذة اعظم من تقطيع اعضاء الاسرى ، وهم احياء ، او من تحويل الساحات العمومية الى غابات بشرية غرست فيها الاجسام على الاوتاد .

وكان ملوك أشور في اواخر عهدهم بدأوا يتمدّنون شيئاً فشيئاً بعد احتكاكهم بمدنية الكلدان السامية . فأخذ احدهم ، اشور بانيبال ، يعزز الآداب والفنون ويخزن في قصره اللوحات التاريخية والدينية ، حتى حوت مكتبته انفس ما عرف في زمانه من العلوم ، وازدانت قصوره بادق ما وصل اليه الفن الاشوري من النقوش والرسوم . ولكن ابى القدر الا ان يحقق فيه المثل السائر : على الباغي تدور الدوائر . فاتاه الويل من حيث لا يدري ، وتدفقت على مملكته من الشمال قبائل السيثيين فاغرقتها في بحر زاخر من البرابرة انتشروا في جميع انحاء المملكة فضضعوا اركانها . وكادت نينوى تسقط بين ايديهم ، ويعملون بنفائسها السلب والنهب ، ولكنها لم تلك سوى عاصفة هبت على حين غرّة . ثم تفرّق شمل السيثيين في ارجاء تلك المملكة الواسعة ، بعد ان وصل قسم منهم الى حدود مصر

حسب الاشوريون انهم نجوا من ايدي القدر ، فعادوا الى بطشهم . ولكن تلك الغزوة افاقت الشعوب المغلوبة من سباتها ، وخطّت في اعينهم من قدر الغالب ، وقد اوشك ان يكون مغلوباً . وكان ملك اشور قد اقام نائباً عنه في بلاد الكلدان الملك نابوبولصر ، وارسله يوماً لمحاربة غزاة اتوا مملكة اشور من جنوبي بلاد الكلدان . وكأنّ نابوبولصر رأى انه قد حان له انتهاز الفرصة والحصول على الاستقلال التام في منطقته ، فاتفق مع الاعداء ، وارسل يستنجد بياكسار ملك الماديين ، وهم من شعوب البلاد الايرانية واعداء الاشوريين الالداء ، فانجده سياكسار ، وحدوده قريبة من عاصمة الاشوريين ، فهاجم نينوى وحاصرها . وما وصل الخبر الى فرعون مصر نكو الّا جنّد الجنود وهاجم البلاد السورية فلم يردعه رادع ، بل اتفق مع الفينيقيين فكانوا له عوناً متيناً على احتلال البلاد . ولم يقف بوجهه الا يوشيا ملك يهوذا ، لانه كان قد حلف يمين الوفاء لملك اشور .

يوشيا ملك يهوذا حليف الاشوريين

اما نكو فلم يعبأ بمقاومة الملك يوشيا بل تابع سيره زاحفاً ، وكتب اليه : « مالي ولك يا ملك يهوذا لست آتياً اليوم لاحاربك انت ، انما لاحارب بيتاً

انا على خلاف معه ، الله اسرني بالاسراع فلا تقف بوجه الاله الذي يرافقني لئلا تهلك. » (سفر الايام الثاني ٣٥ : ٢١)

ولكن أنّى ليوشيا ان يسمع خطاب الفرعون ، وهو يخشى بطش الاشوريين اكثر من وعيد مظلومهم بالامس . فحشد الجند وساقه من بلاد يهوذا الى بطاح مجدّو ، وهي قرب اللجون في مرج بني عامر . فالتقت جيوش يهوذا بالجيوش المصرية ، وحاولت عبثاً ايقافها عن زحفها الى الشمال . وقد اصيب يوشيا في خلال المعركة بسهم قاتل ، فارتدّ جنده القهقرى ، وتابع الفرعون طريقه غير ملتفت الى هذا العدوّ ، وقد سلخ عنه فرقاً مع قائد وجهها لاحتلال بلاد يهوذا . ولم يمض على معركة مجدّو الوقت اليسير حتى خضعت البلاد السورية من دانيا الى قاصيها لفرعون مصر وامتثلت لامره ، فحصّن القلاع الشمالية في جهة جرابلس - كركميش ، وعاد الى البقاع حيث اقام لنفسه معسكرًا في ربله . وما كاد الفرعون يحلّ في ربلة حتى امّت معسكره وفود سورية جمعاء من اراميين وفينيقيين وعرب . وودى الفرعون ان يهوذا ، بعد قتل مليكه ، اتخذ لنفسه ملكاً يوآحاز بن يوشيا ، وما ذلك الّا دليل على ان اهل البلاد لا يزالون قائمين على عدائه . فارسل حالًا الى اورشليم احد قواده ، فنزع الملك من يوآحاز واقام بدلًا عنه صنيعة له يوياكيم اخا يوآحاز ، وساق الملك الخليع الى مصر اسيرًا .

هذا ما جرى من الحوادث في سورية . واما في مملكة اشور فما زال سياكسار يشدّد الحصار على نينوى ويقطع عنها الزاد ، حتى يئس ملكها من الخلاص ، ورأى لعزة نفسه ان يستسلم لعدوّه فاضرم النار في قصره وهلك فيه مع بعض خواصه .

وقد استولى الماديون على نينوى سنة ٦٠٨ ، فاحرقوا معابدها وسلبوا كنوزها ودمّروا حصونها وذبحوا اهلها ، وتركوها قاعاً صفصفاً وقد ابادوها من حيّز الوجود . وبعد مرور قرنين من تسليمها ، مرّ بها جيش من الاروام ، ولم يخطر له ان نينوى مقرّ السيادة والبطش كانت على مقربة من معسكره .

وبعد زوال ملك الاشوريين اقتسم بلادهم سياكسار ونابوبولصر ، فحكم الماديون جهات اشور وقسماً من اسية الصغرى . وجُعلت بلاد الكلدان وسورية تحت سيطرة ملوك بابل . ولم يستقرّ الملك لنابوبولصر الا اوفد سريعاً الى البلاد

السورية ولده نبوكدرصر ليكف يد المصريين عنها لانهم في نظره عبيد لسلطنته كما كانوا عبيداً لسلطنة بعض ملوك اشور.

بنو يهوذا بين المصريين والكلدان

واما بنو يهوذا فانقسموا ، من الوجهة السياسية ، الى قسمين . كان القسم الاكبر منهم يميل الى محالفة المصريين ومعاضدتهم ، وقسم صغير يمثله ارميا النبي يتشبث بعدم معاندة الكلدان وبالخضوع لنبوكدرصر. واوشك ان يكون ارميا النبي وحيداً في رأيه ولم يمنعه ذلك عن التصلب به وانذار الملك والشعب بضرورة الطاعة لمشورته. واظهر ارميا في دفاعه عن رأيه ونبوّته شجاعة نادرة اذ ان اعداءه، وخاصة الكهنة منهم والمتنبين، ادّعوا انه يرمي الشقاق في الشعب ويدعي النبوة كذباً وبهتاناً ، واضطهدوه حتى انهم حاولوا قتله « وقبض عليه الكهنة والانبياء وكل الشعب وقالوا لتموتنّ موتاً » (ارميا ٢٦ : ٥). فاجابهم ارميا بصراحته المعتادة : « هاءنذا في ايديكم فاصنعوا بي كما يصلح ويحسن لديكم . لكن اعلموا يقيناً انكم ان قتلتموني تجعلون دماً زكياً عليكم وعلى هذه المدينة وعلى سكانها لان الربّ ارسلني حقاً اليكم (ارميا ٢٦ : ١٤—١٦) . ولم ينجُ ارميا من ايديهم الّا بعد ان توسّط العفو عنه رجال من شيوخ الارض ، وحماه أحيقام بن شافان.

وكان ارميا يلوم الشعب لتركه عبادة خالقه قائلاً : « على عدد مدنك كان عدد آلهتك يا يهوذا وعلى عدد شوارع اورشليم نصبتم مذابح للخزي مذابح لتقتروا للبعل » (ارميا ١١ : ١٣). ويقول ايضاً « هل يغيّر الكوشي جلده والنمر حينئذ تقدرون انتم ان تصنعوا الخير وانتم معتادون الشر » (ارميا ١٣ : ٢٣) .

ثم ينتقل ارميا من لوم الشعب الى الاسف على مصيره وانذاره بقرب القصاص الالهي فيقول : « من لرأسي مياه ولعيني ينبوع دموع فابكي نهاراً وليلاً على قتلى بنت شعبي » (ارميا ٩ : ١) او انه يقول باسم الاله « اجارحٌ ملوّن الريش ميراثي لديّ فالجوارح عليه من كل جهة هلمي تجمعي يا جميع وحوش الصحراء تعالي الى الأكل . رعاة كثيرون قد افسدوا كرمي وداسوا نصيبي

وجعلوا نصيبي الشهي قفرًا خربًا . جعلوه خرابًا خرابًا ينتحب اليّ . (ارميا ١٢ : ٩—١١) . وكان ارميا يعني بقوله الجوارح ووحوش الصحراء شعوب الكلدان والشعوب المجاورة ليهوذا ، وهي تتربص الفرص للانقضاض عليه ، ومنها امون وموآب وادوم . ولم يكتف ارميا بالتلميح الى الاعداء ، بل انه كان يشير اليهم بصراحة فيقول للشعب : هاءنذا اجلب عليكم امة من بعيد يا آل اسرائيل . . . امة قوية ، امة قديمة . . . جعبتها كقبر مفتوح . كلهم جبابرة . . . يأكلون كرمك وتينك ويدمرون بالسيف مدنك الحصينة (ارميا ٥ : ١٥—١٧) « هوذا صوت سمعة قد وفد واضطراب عظيم من ارض الشمال ليجعل مدن يهوذا دمارًا مأوى لبنات آوى (ارميا ١٠ : ٢٢) « قد اشرف من الشمال شرّ وحطم عظيم . هاءنذا ادمر الجميلة المترفة بنت صهيون » (ارميا ٦ : ١—٢) « ساجعل يهوذا كافة في يد ملك بابل فيجليهم بابل ويقتلهم بالسيف . واجعل كل ثروة هذه المدينة وكل تعبها وكل نفائسها وكل كنوز ملوك يهوذا في ايدي اعدائها فيتهبونها ويأخذونها ويذهبون بها الى بابل » (ارميا ٢٠ : ٤—٥) .

انتصار نبوكدرصر على المصريين قرب كركيش

وطالما ناشد ارميا بني وطنه ليردعهم عن تعليق الآمال على المصريين ، فكان يصف جيش المصريين الزاحف فيقول عنه « من هذا الذي يطفي كالنيل وتلتطم امواجه كالانهار . مصر كالنيل تطغى وكالانهار تلتطم امواجها وتقول اطغى واغشى الارض وادمر المدينة والساكنين فيها . » (ارميا ٤٦ : ٧—٨)

ولكنه لا يرفع شأن هذا الجيش الا ليظهر لاهل يهوذا ان المصريين مع كل ما عندهم من السطوة والمقدرة لن يتمكنوا من التغلب على نبوكدرصر . فكيف بهم وهم شعب صغير لا قوة له امام جبروت الكلدان . وكان يصف لشعبه انكسار المصريين وخذلهم قرب كركيش فيقول عنهم « هيئوا المجن والمجنب وازحفوا للقتال . شدوا على الخيل واركبوا ايها الفرسان وانتصبوا بخوذكم . اصقلوا الرماح والبسوا الدروع . ما بالي رأيتهم قد فشلوا ونكصوا الى الوراء . قد كسر جبابرتهم وانهزموا انهزاماً ولم يلتفتوا . . . الخفيف لا يهرب والجبار لا يفلت . في الشمال بجانب نهر الفرات عثروا وسقطوا » (ارميا ٤٦ : ٣—٧) . (للبحث صلة)